الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي لميلة

معهد الآداب واللغات **قسم اللغة والأدب العربي**

مفهوم ألفاظ الطبيعة والكون في القرآن الكريم

دراسة لغوية إحصائية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة ليسانس، في اللغة والأدب العربي

تخصص: اللغة العربية

إعداد الطالبة:

- **عبير بوعوين**
- **نسيمة بوفدش**

إشراف الأستاذ:

أ/ سليم مزهود

السنة الجامعية : 2013/2012

شكر وتقدير

بدأنا بأكثر من يد وقاسينا أكثر من همٍ وعانينا الكثير من الصُعوبات وها نحن اليوم لله نطوي سهر اللَيالي وتعب الأيَام وخُلاصة مشوارنا بين دفَتي هذا العمل المتواضع.

إلى منارة العلم والإمام المصطفى.. إلى الأمِيِ الذَي علَم المتعلَمين

إلى سيِد الخلق إلى رسولنا الكريم

سيُدنا محمَد صلَى الله عليه و سلَم .

ثم نتقدَم بالشُكر والامتنان بعد شكر الله عزَ وجلَ، فمن لم يشكر العبد لم يشكر الله

فالشكر لأستاذنا الكريم

***سليم** مزهود*

على جهده، ونسأل الله جلَ وعلا أن يُجزيه عنَا خير جزاء على هذه المذكِرة الذَي بذل جُهدا في إعانتنا وإعطاء مُلاحظاته القيِمة وأفكاره وتوجيهاته السَديدة وإعطاءه لنا جزءا كبيرا من وقته، وإنَا إذ شكرناه لنعترف بتقصيرنا في حقِه ولا نملك له سوى الدُعاء بالتَوفيق في خطاه، سائلتين من الله أن يجزل له المثوبة.

عبير و **نسيمة.**

إهداء

إلى الينبوع الذّي لا يملُ العطاء

إلى من حاكت سعادتي بخيوط منسوجة من قلبها إلى أمي العزيزة رحمها الله (رنجة).

إلى من شقى وسعى لأنعم بالرَاحة والهناء، الذّي لم يبخل بشيء من أجل دفعي في طريق النَجاح الذّي علّمني أن أرتقي سُلّم الحياة بحكمة وصبر إلى أبي الغالي (ع المجيد)

إلى مثال الحبً والحنان، إلى التّي كانت ولا تزال شلاّلا واقفا من الأمان، حبًي الأوَل والأزل الذّي لا ولن يُضاهيه آخر ولا يوفّي حقَها إلاَ اسمها المتردّد على لساني ثلاثا أمًي، أمًي، أًمًي (خديجة).

إلى من حبًهم يجري في عروقي و يلهج بذكراهم فؤادي إلى إخوتي (أميرة، وائل).

إلى من سرنا سويًا ونحن نشتقُ الطَريق معا نحو الإبداع والنَجاح

إلى من تكاتفنا يدا بيد و نحن نقطف زهرة وتعلَمنا إلى أعزً الأصدقاء والزُملاء:

(وسام، سارة، مريم، عبير، ونسيمة)

إلى من علّمونا حروفا من ذهب وكلمات من درر وعبارات من أسمى وأجل العبارات في العلم .. إلى من صاغوا لنا حروفا ومن فكرهم منارة تنير لنا سيرة العلم والنَجاح إلى كُلً أساتذتي منهم (سليم عواريب، وسليم مزهود خاصًة؛ الذّي أقول له بُشراك قول رسول الله صلَى الله عليه وسلَم: "إنَ الحوت في البحر، والطَير في السَماء، ليُصلَون على معلّم النَاس الخير"

"إلى الرُوح التي سكنت روحي"

إلى أطيب من عرفت وأشرف وأنبل فيمن عاشرت رفيق دربي (محمَد الصَالح).

إلى عمَاتي وأعمامي (بريزة، نعيمة، محمَد، وفيصل) وأزواجهم وزوجاتهم.

إلى بنات العيلة (ليليا، ابتسام وفلذة كبدهما حفظهم الله، رميسة، أمينة، سارة، مريم، سميّة، نائلة ونسيبة).

إلى كلً من عائلة " إدري" كبيرهم وصغيرهم.

إليك يا من أشتاق لها دائما خالتي الغالية (نجوى).

إهدائي هنا ليس لتخرُجي فقط، بل للتّحليق معا نحن والرِفقة في سماء مملوءة بغمام يصحبه المزن.. هي فرص تُقتنص، وثمرات تُقتطف عندما تكون يانعة، وها أنا أقف لأقطف إحدى الثَمرات التِي ينعت لي، وهي تخرُجي في انتظار قطف المزيد بإذن الله.

هنا قد وضعت كلمات لكلً من ترك بصمة في حياتي وغيَر من مجراها وعمَق في توسيع مداركي العلمية والعقليَة، آملة من المولى أن ينير خطايا.

عَبِير

إهداء من القلب

إلى صاحبة القلب الحنون إلى من أسقطت دمعة الفرح بصدق في كل نجاح حقّقته

"أمّي الغالية" .. "**حضريّة**"

إلى سندي وكتفي الذي ساعدني ومهّد طرق العلم أمامي ولم يقصّر عليّ بنصيحة

وصاحب الفضل الكبير: "والدي" .. "**حسين**"

إلى توأم روحي أخواتي : **نادية، سميحة، مفيدة، وسيلة**، وإخوتي: **سمير** و**عزيز**.

إلى زوج أختي نادية وأولادها: **هيثم، ياسر، تامر** والكتكوتة "**رؤية**".

إلى زوج أختي **سميحة** وفلذة كبدها "**سلسبيل**".

إلى من شاركت معهم أحلى أيّام حياتي وساندوني وكنّ بالنّسبة إليّ عائلتي الثّانية

صديقاتي: **فوزية، خديجة، إيمان، بشرى، أمينة** و**جهيدة** ...

إلى زميلتي وأختي ويدي اليمنى في إنجاز هذا المشروع، الأخت "**عبير**"

إلي أقاربي وكل من عرفني ودعا لي بالخير والنّجاح، إلى كل من كان له لمسة في

وصولي إلى هذه المرحلة.

إلى كل أستاذ قدّم لي ولو نقطة من بحر فكره وثرائه المعرفي .

وبالأخص إلى الأستاذ المشرف صاحب الفضل الكبير، الأستاذ "**سليم** مزهود "

الطّالبة "**نسيمة** بوفدش"

مقدمة

مقدمة :

يشكل الكون الذي نعيش فيه بما فيه من عناصر الطبيعة، أهمّ العناصر التي خلقها الله تعالى قبل خلقه الإنسان، وقد اهتم العلماء بدراسة حقيقة وجود الكون، إذ ظهرت عدة دراسات مختلفة اهتمت بتطور الكون عبر التاريخ.

وقد وردت ألفاظ الطبيعة والكون في القرآن الكريم، في عدة مواطن نظرا لأهميته الكبيرة التي تعكس حقيقة الجود وعظمة الخالق عزّ وجل، إذ يعد هذا الموضوع من أهمّ المواضيع التي لاقت اهتماما بالغا من طرف عدة علوم مختلفة (علم الفلك، علم الفيزياء، علم الطبيعة علم الجيولوجيا...) هادفين لكشف الأسرار الكامنة فيه.

وقد وقع اختيارنا على هذا البحث الموسوم بـ: (مفهوم الطبيعة والكون في القرآن الكريم) لأسباب عديدة منها؛ كون الموضوع يحمل من التّشويق الكثير، ومن أجل الإطلاع على ماهية هذا الكون الواسع، والكشف عن العالم الخارجي، وخصوصا أنه متعلق بالقرآن الكريم. إضافة إلى حبّ اطلاعنا على نظرة القرآن للعناصر الموجودة في الطبيعة، والأسس التي وضعها تعالى للتّعامل مع هته الأشياء التي أوجدها .

والسبب الرّئيس هو أن أستاذنا المشرف أعجبه هذا الموضوع، وأرشدنا لاختياره، باعتباره موضوعا جديدا لم يسبق اختياره من قبل، كمجال للبحث الدراسي .

إن طبيعة المضامين المتنوعة لهذا البحث ،جعلتنا نحاول اعتماد منهج تكاملي للإطلاع على مفهوم الكون والطبيعة من منظور القرآن الكريم، وأهم المناهج التي اتبعناها في هذا البحث هي؛ المنهج الوصفي، المنهج التحليلي الوصفي، المنهج الإحصائي .

أما عن صعوبات البحث فقد واجهتنا صعوبات عديدة، أثناء إنجازنا لهذا البحث من أهمّها صعوبة الموضوع لأنّه مرتبط بالقرآن الكريم، وأيضا وجمع المصادر والمراجع التي اكتشفنا من خلال عملية الجمع أن هذا الموضوع، قليل التّناول ولم يدرس بصفة مستقلة لوحده، إضافة إلى قلة الكتب التي تفرّغت لدراسة دلالة الكون والطبيعة في القرآن، إضافة إلى أنّه واجهنا ظرف طبّي، عرقل علينا سير عملية البحث.

ولكننا وبجهد كبير بدلنا ما بوسعنا، لجمع معلومات قيّمة ومهمة، وفيها فائدة تخص البحث فأحيانا كناّ نصل إلى غايتنا، وأحيانا تتعثّر أغراضنا بسبب هذه الصعوبات. ولكن والحمد لله تجاوزنا هذه الصعوبات بفضل المولى عزّ وجل، وحسبنا في هذا البحث إن أخطأنا أننا كناّ مخلصين، ساعين إلى خدمة العلم، واللغة العربية –خصوصا– بكل شغف وحب.

وعن المصادر والمراجع التي استعناّ بها في مشروعنا فتمثّلت في؛ القرآن الكريم وبعض كتب التّفسير، كتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وأيضا كتب علمية، من بينها قصّة الكون من التّصورات البدائية إلى الإنفجار العظيم ...

وقد اتّبعنا في إنجازنا لهذا البحث، على خطة مرسومة بدقّة، استهللنا بحثنا هذا بمقدّمة البحث، ثمّ وضعنا مدخلا لموضوعنا، وقسّمناه إلى فصلين؛ فصل نظري تحدّثنا فيه عن مفهوم الكون والطبيعة بصفة عامة، وعن أنواع الكون والطبيعة، وعنصر مهم هو عن بداية خلق الكون. أما الفصل التّطبيقي؛ فكان دراسة دلالية إحصائية لألفاظ الكون والطبيعة في القرآن الكريم. ثم ختمنا البحث بمجموعة النتائج التي توصلنا إليه في الخاتمة. وفي الأخير لنا كل الأماني أننا كناّ في المستوى، وقدّمنا ما هو مطلوب مناّ، فإن أصبنا فمنّ الله وإن أخطأنا فمناّ، راجيتين من المولى جلّ جلاله أن يكون لموضوعنا فائدة، لكل طالب علم، ومرجعا للأجيال اللاحقة إن شاء الله .

مدخل

فضائل القرآن الدالة على مظاهر الطبيعة والكون

- **تمهيد:**

خلق الله الإنسان والحيوان والنَّبات وكلَ الجماد، وميَز عن هذه المخلوقات كائن الإنسان بميزة العقل لكي يتدبَر ويفكَر ويهتدي إلى العلم والمعرفة، فلِمَ لا يتدبَر الإنسان في أصل وجود هذا الكون وما يحتويه؟ لقوله تعالى:" إنَ في خلق السَماوات والأرض، واختلاف اللَيل والنَهار لآيات لأولي الألباب" {آل عمران 190}.

فإذا تدبَرنا في حقيقة وجود هذا الكون من خلال كلام الله عزَ وجلَ لوجدنا أنَها تدلُّ على عظمة المولى عزَ وجلَ وقدرته في الخلق وإبداعه الجمال الحقيقي، فسبحان الذي فطر السَماوات والأرض وبثَ فيها من كلِّ شيء حياَ.

فمن دلائل الإعجاز القرآني أنَه يساير كلَ الأزمنة والعصور... وعلى أولي الألباب أن يولوا أبصارهم نحو هذا الكتاب المعجزة فيتفحَصوا آياته وسوره ويقرأوا ما بين الأسطر ويبرهنوا على عبقريتهم ونباغتهم فيجنوا قدر المستطاع من ثمار هذا الكتاب المعجزة ... بل هذا الوابل من الحقائق العلمية التي قد يقشعَر الجسد ويتجمَد الفكر أحيانا لسماعها[1]

فكلُّ مقاييس الإعجاز القرآني متوفَرة، من جودة السَّبك وجمال الأسلوب وروعة الاستعارة والتَشبيه، والإخبار بالغيبيات، والإيجاز على الكمال، ومن فصاحة اللُّغة وقوَة التأثُّر وشدَة التَأثير.

ومن خصائص القرآن الكريم نجد: خاصيَة الشُّمولية؛ فقد جاء كتاب الله عزَ وجلَ إلى جميع البشرية دون أن يخصَ به أمَة عن أمَة أخرى، إذ جاء شاملا ملمَا بكلَ الجوانب الحياتيَة، الاجتماعية، الدِّينية، السِّياسية، العلمية والثَقافية وغيرها...

لماذا جاء القرآن؟ :

1- أمير ملاتي ربيعة: القرآن والعلم في فضاء المعرفة، دار الغرب للنَشر والتَوزيع، وهران. ص 6

القرآن معرفة الدَهر، وكتاب الزَمن، ودستور الحياة، يدعو إلى تحرير الفكر من أغلال التَقليد وأوهام الجمود، ويهذِّب النَفس، ويرقى بها إلى مستوى الإنسانية الكاملة، وينير الطَريق إلى أسمى الأهداف، وأنبل الغايات، ويصحِّح ما خطَّط من كبار الفلاسفة وعظماء المصلحين من الحقائق الكونية، والنُظم الاجتماعية، ويضمٌ تحت لواء المحبة والوئام شتات البشريَة، ويسنٌ مناهج للآداب والأخلاق، ويضع أسُسًا وقواعد لحياة العزَة والكرامة، ويحلَل الطَيِّبات ويحرَم الخبائث، ويوطد السَلم العام، بين سائر النَاس ويضع حلولا للمشاكل المعقَدة التي تكدَر صفو الحياة، وتهدَد الوحدة بالتَمزُّق والتَشتُّت والضَياع[1].

فهذا القرآن الذي جاء يحمل لنا بين ضفَتيه الكثير من المعجزات المرفقة بحقائق علمية عديدة ومتنوَعة ... جاء يحمل بين طيَاته أسرارا في علم الفلك... في علم البحار والمحيطات ... في علم الجيولوجيا ... وعلم الأجنَة [2]، فالقرآن إذاً آيةُ الله لرسوله صلَى الله عليه وسلَم بالمعنى اللُغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة "آية"؛ فهو البيان الواضح الجليٌ يدركه كلٌ المخاطبين، وهو في الوقت نفسه معجزة بيانية عظمى يمنح المهتدين مزيدا من النُور، ويتحدَى المعاندين أن يعارضوه بمثله، كما تحدَى تحدَى موسى سحر قومه بعصاه، وعيسى طبَ عصره بإحياء الموتى، وآمن الكثيرون حينما تأمَلوا وتدبَروا وعاينوا المعجزة بالقلوب، فالإعجاز على أيَ حال هو وسيلة إيمان، ووسيلة ضلال[3] لقوله تعالى: "يضلٌ به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضلٌ به إلَا الفاسقين." {البقرة 64}

أسرار القرآن:

1- محمَد الصَالح الصدِّيق: البيان في علوم القرآن. المؤسَسة الوطنيَة للكتاب، باب الزُوار، الجزائر، ص 223

2- أمير ملاتي ربيعة: القرآن والعلم في فضاء المعرفة ص6

3- عبد القادر عطاء: عظمة القرآن. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 18

"إنَ الإعجاز والإقناع في كتاب الله العظيم علميان وعقليان، يقدَمان الحقائق والمشاهد الطَبيعية كآيات الله تثبث وجوده وتؤكَد ألوهيته، ولهذا كانت الدَعوة في القرآن الكريم واضحة وصريحة لكلَ البشر بأن يتدبَروا ويتفكَروا وينظروا في هذه الآيات لتستريح أفئدتهم، وتهدأ نفوسهم وتطمئنَ إلى قدرة الله وعظمته، ورحمته أيضا"[1]

فالقرآن الكريم هو كلام الله عزَ وجلَ، المنزَل على سيَدنا محمَد صلَى الله عليه وسلَم، لهداية البشر وتنظيم أمور حياتهم، وتحقيق سعادتهم الدٌنيوية والأخروية المعجم بأقصر آية منه.

"خلق الله الشَمس والقمر والنٌجوم والكواكب الأخرى والأرض وكلٌ ما عليها من أجل الإنسان، لتكون في خدمته ومسخَرة له، وقد جعلها وفق مشيئته وخاضعة للإنسان بأمره وتقوم بدورها صاغرة، ومن وظائفها: إعطاء الضَوء والطَاقة، وهي مصدر للحساب وأغراض متعدَدة ..." [2]

من هذا الكلام يتَضح لنا أنَ خلق الكون بطبيعته من ورائه حكمة ألا وهي؛ خدمة الإنسان، ولهذا جاء القرآن مبيَنا أهمَية هذه الظَواهر الطَبيعية والكونية المحيطة بنا ووظائفها التي تؤدَيها بشكل دقيق، بتسيير من الخالق عزَ وجلَ، ومن هنا فعلى أهل العقول أن ينظروا إلى هذا الكون الواسع وما يحتويه نظرة توحيد وتقدير لعظمة الرَحمان. وقد خاطبهم الله –أهل العقول– في القرآن في عدَة مواضيع لقوله تعالى: "الحجٌ أشهر معدودات فمن رفض فيهنَ الحجَ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجَ وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزوَدوا فإنَ خير الزَاد التَقوى واتَقون يا أولي الألباب" {البقرة 197}

ويرد الله بقوله "أولي الألباب"؛ أصحاب العقول المتدبَرة والمفكَرة، إذ يكشف القرآن عن صفات هؤلاء ومميَزاتهم، فهم العلماء الذين اكتسبوا المعرفة –أولو العلم– أو الذين رسخوا

1– محمَد فيَاض: إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان. دار الشُروق، ط1 ، 1997، ص 6

2– سيٌد وقَار أحمد حسن: العلوم الفلكيَة والقرآن الكريم. دار طلاس، دمشق، ط2 ، 1996م ، ص 53

في العلم فهم يستطيعون استنتاج تنبُّؤات بحكم معرفتهم وحكمتهم التي منحها الله لهم بقوانينه[1] .

وخلاصة القول إنَ القرآن جاء ملمَا بجميع جوانب الحياة، وكان إلمامه بها واضحا من خلال كلامه عزَ وجلَ وآياته في هذا الكون.

- **ألفاظ الكون والطبيعة دلالة على عظمة الخالق:**

إنَ أهمَ فكرة تشدُّ القارئ لسور القرآن الكريم؛ هي الإلحاح على الظواهر الطَبيعية والكونية مجالا للتَدبُّر، بل إنَه يجب اعتبارها إشارة إلى وجود الخالق وعظمته[2]، لقوله تعالى: "إنَ في خلق السَماوات والأرض واختلاف اللَيل والنَهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع النَاس وما أنزل الله من السَماء من ماء فأحيى به الأرض بعد موتها وبثَ فيها من كلَ دابَة وتصريف الرَياح والسَحاب المسخَر بين السَماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" {البقرة. الآية: 164}

لقد خلقنا سبحانه وتعالى بشرا في هذه الدُنيا، وتركنا نتخبَط في طيَاتها جمال الطَبيعة وقسوتها، كما أنَه خلق لكلَ منَا أعضاء تقوم بأدوار ووظائف مختلفة، ومن بين الأعضاء التي وهبنا إيَاها العين والعقل لعلَنا نبصر ونفكَر... نبصر ما خلق لأجلنا وسخَر لنا من أشياء عظيمة سواء على أديم كوكبنا أو في الفضاء الواسع[3]. لقوله تعالى: "ولقد جعلنا السَماء بروجا وزيَناها للنَاظرين"

فقد أبدع جلَ جلاله في الخلق بداية من خلق الكون وخلق آدم عليه السَلام وحواء، فكان بيان هذا الإبداع في محكم آيات القرآن الكريم لهذا الإبداع، فخير ما نتحدث عنه

1- سيد وقار أحمد حسن: العلوم الفلكية والقرآن الكريم. ص 54

2- جمال ميموني، نضال قسُوم: قصَة الكون من التَصوُرات البدائية إلى الانفجار العظيم. دار المعرفة، الجزائر 2002، ص 58

3- أمير ملاتي ربيعة: القرآن والعلم في فضاء المعرفة. ص 13

هو كيفية خلق الكون والطَبيعة، والتي شغلت ألفاظ كلَ من الكون والطَبيعة آيات وسور من القرآن، حتَى أنَ هناك سورا من الكتاب المطهَر قد سمِّيت بألفاظ الكون؛ كالنَجم والشَمس وغيرها.

"إنَ الله خالق قوانين الطَبيعة ومدبِّرها، وقد استعملت لفظة آية المفردة ومشتقَاتها في القرآن الكريم نحو (382 مرَة)، ولفظة (آيات) تعني الإشارات والرَسائل والمعجزات وآيات القرآن تعني (آيات الله) و(رسائله) الظَواهر والقوى والقوانين في العالم المادي، إضافة إلى القوانين الأخلاقية والمبادئ الإيديولوجية التي جسَدتها آيات القرآن. وقد أشير إليها أنَها حكم الله وقضاؤه ..." [1]

ألا ترى أيُّها الإنسان أنَ آيات القرآن تحمل دلالات عدَة، إذا تأمَلنا فيها نجد بعضها أو أغلبها يوحي ؛بل يبيِّن كيفية سيرورة الكون من تعاقب اللَيل والنَهار، وشكل الشَمس ودورانها حول نفسها، لقوله تعالى: "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَ السَحاب صُنع الله الذي أتقن كلَ شيء إنَه خبير بما تفعلون" {النَمل. الآية: 88}، ففي هذه الآية يضرب الله مثل دوران الأرض حول الشَمس بمرور الجبال، والجبال هي أبرز ما على الأرض[2].

- **فضائل القرآن على النَفس البشرية:**

1- سيِّد وقَار أحمد حسن: العلوم الفلكيَة في القرآن الكريم. ص 245

2- أمير ملَاتي ربيعة: القرآن والعلم في فضاء المعرفة. ص 26

القرآن هو المنهج القويم في تقويم النُّفوس، وردَها إلى فطرتها وسلامة خلقها، وأساس التَشريع الإسلامي وروحه؛ وهو التَعامل مع النَفس البشرية بشتَى أشكالها، فهناك نفس متينة لا تحرَكها الأهواء ووساوس الشَيطان، ونفس هشَة هزيلة قابلة للانحراف وراء ميولاتها، ونفس فاجرة لا يهمُّها سوى إرضاء شهواتها.

وقد وردت كلمة "نفس" في القرآن الكريم حوالي ثلاث مئة مرَة بمشتقَاتها وتركيباتها المختلفة... وفي كلام القرآن ذكر منها النَفس اللَوامة؛ والنَفس الأمَارة بالسُّوء؛ والنَفس المطمئنَة... والنَفس الرَاضية والمرضية... فإن خضعت النَفس للمنهج الحق أصبحت مطمئنَة؛ وإذا تمرَدت على هذا المنهج أصبحت أمَارة بالسُّوء..." [1]

وقد جاء القرآن مركزًا الأضواء على النَفس الإنسانية منذ بدء نشأتها... ويتحدَث الإنسان في مواضع مختلفة عن أوصاف النَفس الإنسانية وسماتها المختلفة[2]

لقوله تعالى:" ومن النَاس من يعجبك قوله في الحياة الدُّنيا ويشهد الله على ما في قبله وهو ألدُّ الخصام.{البقرة}، فالنَفس اللَوامة: في مواضع عديدة نجد القرآن يتكلَم عنها بقوله: "لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنَفس اللَوامة" {القيامة الآية 1-2}

وهي النَفس الواعية التي تقوم باللَوم وحفظ القيم والقانون... وهذه النَفس هي التي عرفت واجباتها ومسؤولياتها... وهي النَفس المستبصرة الواعية، قال تعالى: "قد جاءكم بصائرُ من ربِّكم فمن أبصر فلنفسه" {الأنعام. الآية: 104}، وهي النَفس التي تبغي مرضاة الله[3].

فهي بهذا على عكس النَفس الأمَارة بالسُّوء وهي النَفس التي أخلدت إلى شهواتها: "إنَ النَفس لأمَارة بالسُّوء" {يوسف. الآية: 53}. وهي النَفس البخيلة التي لا حدود لهواها والتي تبعث بالإنسان لارتكاب الجرائم والمحرَمات.

1- أحمد عمر هاشم: النَفس في القرآن الكريم . دار الفصل، 1996، ص 5

2- جمال ماضي أبو حازم: القرآن والصِّحة النَفسيَة، ط 1، 1994، ص 26

3- المرجع نفسه. ص 26

وبهذا تكون النَفس اللَوامة شبيهة بالنَفس المطمئنَة: "والملك وجنده من الإيمان يقتضيان من النّفس المطمئنّة التّوحيد والإحسان والبّر والتقوى والإنابة والإقبال على الله وقصر الأمل والاستعداد للموت وما بعده" [1] قال تعالى يا أيّتها النّفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضيّة مرضيّة، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنّتي" الفجر.

وكلمة "النَفس" عند الأطبَاء الآن؛ هي المخرج من الجهل بأسباب المرض، فيقولون: إنَه نفسي، فإذا سألتهم: وما هو العلاج؟ فإنَهم يصفون له عقاقير[2].

غير أنَ العلاج المثالي لأمراض النَفس هو العودة إلى الدَين والاحتكام إلى قوانينه في مصائب نشأت من اختيار الإنسان ومصائب فوق اختياره، وما علينا إلاَ أن ندعوكم إلى التَأمُّل ومحاولة معرفة ما معنى "أنَ الله موجود"، إنَه وبمجرَد نطق لفظة "الله" يرتاح الإنسان وتطمئنٌ نفسه، ويسلّم المؤمنُ التَائبُ نفسَه لخالقه.

ومعنى تلك العبارة: أنَ العدل موجود والرَحمة موجودة والمغفرة موجودة"، ومعناه أن يطمئنَ القلب وترتاح النَفس ويسكن الفؤاد ويزول القلق، فالحق واصل أصحابه ومعناه أن لا يكفَ الإعجاب وألاَ تموت الدَهشة وألاَ يفتر الانبهار وأن لا يتوقَف الإجلال.. فنحن أمام لوحة متجدِّدة لأعظم المبدعين.. معناه أن يتدفَق القلب بالمشاعر.. وتزفَ الرُّوح كلَ يوم جديد كأنَه عرس جديد .. معناه أن تذوب همومنا في كنف كنف رحمة الرَحيم ومغفرة الغفَار، ألا يقول لنا ربَنا: "إنَ مع العسر يسرا".. وأنَ الضَيق يأتي في طيَاته الفرج، فأيٌ بشرى أبعث للاطمئنان من هذه البشرى[3].

فالله سبحانه وتعالى موجود واحد أحد، هو الوطن والحمى، والملجأ والمسند إليه، والباب والرِّحاب، وذلك الإحساس معناه السَكن والطُّمأنينة، وراحة البال والتَفاؤل، والهمَة

1- أحمد عمر هاشم : النَفس في القرآن الكريم. ص 33

2- المرجع نفسه. ص 6

3- مصطفى محمود: علم نفس قرآنيً جديد. دار أخبار اليوم، 1998، ص 7- 8

والإقبال، والعمل بلا ملل ولا فتور، ولا كسل، كلُّها ثمرة "لا إله إلاَ الله" في نفس قائلها الذي يشعر بها، وهي أخلاق المؤمن؛ وتلك هي الصَيدلية التي تداوي كلَ أمراض النُفوس، وتشفي كلَ علل العقول، وتبرئ كلَ أدواء القلوب.

إنَ كلَ العبادات المفروضة علينا لها دورها الفعَال في تربية وترويض النَفس البشرية على فعل الخير وترك الشَر، إذ أنَ للعبادات أثرها في تزكية النَفس الإنسانية... بل إنَ العبادات في الإسلام تستهدف تزكية النَفس وتطهيرها من الأخطاء والآثام، قال تعالى في شأن الصَلاة: "إنَ الصَلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر"[1]

كما جاء القرآن ناهيا عن كثير من التصرُّفات، وذلك لاستقامة النَفس وتحلِيها بالأخلاق الحميدة، إذ جاء ناهيا عن الظَن والسُّوء والغيبة، لقوله تعالى: "يا أيُّها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظَن إنَ بعض الظَن إثم ولا تجسَسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتَقوا الله إنَ الله توَاب رحيم". {الحجرات. الآية: 12}

"يقول الله ناهيا عباده المؤمنون عن كثير من الظَن وهو التُّهمة والتَخوُّن للأهل والأقارب والنَاس في غير محلِّه، لأنَ بعضه إنَما يكون محضا... لقوله صلَى الله عليه وسلَم: "ثلاث لازمات لأمَتي؛ الطِّيرة والحسد وسوء الظَنَ"[2]

ومن هذا كلُّه فإنَنا نصل إلى أنَ فضل القرآن على النَفس الإنسانية عظيم، حيث إنَه لم يترك جانبا من الحياة إلاَ وأرشدها إلى التَخلُّق بالأخلاق الحميدة، والابتعاد عن الطِّباع السَيِّئة التي قد تؤدِّي إلى فقدان الشَخصيَة، وفساد النَفس.

1- انظر: أحمد هاشم: النَفس في القرآن الكريم. ص 18

2- فؤاد شاكر: أدب القرآن، القاهرة، 2002م، ص 19

الفصل الأول

دلالة ألفاظ الطبيعة والكون في القرآن الكريم

ð **مفهوم الطَبيعة:**

أ- لغة: لقد ورد المفهوم اللُّغوي للطَبيعة في عدَة معاجم عربية، وقد ورد في معجم لسان العرب أنَ الطَبيعة هي: "الخليقة والسَجية التي جبل عليها الإنسان. والطُّبَاع: كالطَبيعة، مؤنَثة... وقال الأزهري: ويجمع طبع الإنسان طباعا، وهو ما طبع عليه من طباع الإنسان في مأكله ومشربه، وسهولة أخلاقه... وطبعه الله على الأمر بطبعه طبعا: فطره. وطبع الله الخلق على الطَبائع التي خلقها فأنشأهم عليها وهي خلائقهم... والطَبع الختم وهو التأثير في الطَبع ونحوه... وطبع الله على قلبه: ختم على المثل، ويقال طبع الله على قلوب الكافرين... أي ختم فلا يعي... ولا يوفَق لخير **1**

وقد جاء في القاموس المحيط أنَ: "الطَبيعة من الطَبع، والطَبيعة والطُّباع، ككتَاب: السَجية جبل عليها الإنسان، والطِّباع، ككتاب: ما رُكب فيها من المطعم والمشرب وغير ذلك من الأخلاق ... وطبع عليه، كمتع، ختم...؛ والختم هو التَأثير في الطَين ونحوه... وطُبع على الشيء، بالضَّم: جُبل... وفلان يطبع إذا لم يكن له نفاذ في مكارم الأمور... والتَطبيع: التَجنيس؛ وتطبع بطباعه: تخلق بأخلاقه **2** .

وعرفت الطَبيعة أيضا تعريفا متشابها لهذين التَعريفين: "والطَبيعة: السَجية التي جبل عليها الإنسان، وهو في الأصل مصدر، والطَبيعة مثله وكذلك الطِّباع والطَبع: الختم، وهو التَأثير في الطين ونحوه.

والطَابع؛ الخاتم؛ وطبعت على الكتاب، أي ختمتُ، وطبعت الدِّرهم أو السَيف، أي عملتُ... والطَبع بالكسر: النَهر، والجمع أطباع، عن الأصمعي، ويقال هو اسم نهر يعينه"**3.**

1- ابن منظور: لسان العرب. دار صبح، بيروت، لبنان، ط 1، ج 1 ، 2006 ، ص 111

2- الفيروز بادي: القاموس المحيط. مؤسَسة الرِّسالة، ط8، 2008م

3- إسماعيل ابن حمَاد الجوهري: الصِّحاح. دار العلم، بيروت، لبنان، ج 3، ط 4، 1990، ص 1252-1253

وقد عرفت الطَبيعة في المنجد كالآتي: "الطَبيعة: علم الطَبيعة، فيزياء؛ درس الطَبيعة، العالم الحِسِّي، مخلوقات الكون من نبات وسماء وجبال وأودية... متساهل من طبيعته، مرح من طبعه، مزاج الإنسان المركَب من الأخلاط؛ طبيعة النَار أو الدَواء أو نحوها، بما سخَر الله تعالى من مزاجه ... ما وراء الطَبيعة عالم الغيب، طبائع الأشياء وصفاتها وخصائصها... وطبيعي؛ خاص بالمادَة الطَبيعية، والظواهر الطبيعية، موجودة في الطَبيعة، والطبيعيات؛ علم الطَبيعة، وطبيعيَة: مدرسة أدبية وفنِّية تدعو إلى تقليد الطَبيعة..." **1**

كما أنَ الطَبيعة جاءت من "طبع" الشيء، طبعا. يقال: طبع الله الخلق، أنشأه. (الطَابع): الطَابع. الطَبيعة؛ يقال: له طابع حسن. (الطَبيعة)؛ السَجيَة، ومزاج الإنسان المركَب من الأخلاط. (علم الطَبيعة)؛ علم يبحث عن طبائع الإنسان وما اختصَت به من القوَة. (الطَبيعي)؛ نسبة إلى الطَبيعة، وفلان مطبوع على الكرم؛ أي شيمته الكرم...

- **الطَبيعة في الاصطلاح:**

يقول موسكو فيتشي: "ينطق لفظ الطَبيعة على العالم الخارج و القُوَة التي تفعل فيه" ويقول كلود ليفي ستروس:" الطَبيعة هي كلٌ ما يوجد فينا بحكم الإرث البيولوجي"، ويراد بالطَبيعة في هذا التَعريف الجانب الوراثي البيولوجي للإنسان؛ أي الجانب الذَي يولد الإنسان ويزوِّد به من غرائز وانفعالات ومجموع الصِّفات والسِّمات الجبلية والفطرية في الإنسان. يقول أرسطو:" إنَ كلَ ماهية تسمىَ طبيعة والطَبيعة الأولى هي الماهية"

ومن الأقوال السابقة، يمكننا أنْ نقول إنَّ الطَبيعة تحمل معان رئيسة هي:

1– أنطوان نعمة وآخرون: المنجِّد في اللغة العربية المعاصرة. دار المشرق، بيروت، لبنان، ط 2، 2001 ص 898–899

* **المعنى الأوَل:** الطَبيعة المادية الخارجيَة، ويراد بها الواقع المادي الفيزيائي المتشكِّل من مجموعة هائلة متنوِّعة من الظَواهر الماديَة الفيزيائيَة والكيميائيَة، وهذه المواد تتفاعل فيما بينها وفق علاقات منظَمة.

* **المعنى الثَاني:** الطَبيعة الماهويَة والجوهريَة، أي تلك الخصائص الثَابتة والضَروريَة التي تشكِّل قوام ما، كأن نتحدَث عن طبيعة الإنسان، طبيعة العالم، طبيعة النَار، فلكُلٍّ طبيعته المميِّزة له عن غيره.

* **المعنى الثَالث:** الطَبيعة الدَاخليَة للإنسان، ويراد بها الجانب الوراثي البيولوجي للإنسان، أي مجموع الغرائز والانفعالات التي يولد الإنسان مزوَدا بها، يقول كلود ليفي ستروس: "الطَبيعة هي كلٌ ما يوجد فينا بحكم الإرث بيولوجي"

ð **أنواع الطَبيعة:**

إنَ الطَبيعة صامتها ومتحرِّكها موضع اهتمام الإنسان منذ القدم، فهو يعتبرها الملجأ الذي يلجأ إليه التَعبير والتَمثيل، والطَبيعة تنقسم إلى قسمين: طبيعة حيَة وأخرى صامتة. ومن هنا ننطلق إلى تعريف الطَبيعة.

فالطَبيعة الحيَة: هي المتحرِّكة، كالطُيور والحشرات والحيوانات الأليفة والوحشيَة.

أمَا الطَبيعة الصَامتة: فهي كلٌ شيء ساكن في الكون من جبال وأشجار، وسماء وسحاب، ونجوم وشمس... وغيرها من عناصر الطَبيعة السَاكنة.

أوَلا؛ الألفاظ الدَالة على الطَبيعة الحيَة: ومنها ما يدُلٌ على **الحيوان المفترس**، كالأسد والنَمر، والثُعلب والضَرغام، والذِئب والسَرحان... ومنها ما يدلٌ على **الحيوان الأليف:** كالخيل والمها، الكلب والأرنب، الإبل والغنم، الجمل والنَاقة، والقطَ وغيرها.

ومنها ما يدلٌ على **حيوانات البحر**: كالحوت والأصداف، والأسماك والضَفادع والدُلفين، وغيرها من أنواع الأسماك والأصداف.

ومنها ما يدلُّ على **الطَير المفترس وغير المفترس:** كالنَمر، الغراب، الصَقر والبومة، البلبل والحمامة، العصفور والدِّيك، الدَجاجة والكناري... وغيرها من الألفاظ الدَالَة على أعضاء الحيوان والطُّيور.

ألفاظ دالَة على الشَجر والنَبات: من شوك وشجر، أغصان وسنابل، نخل وزيتون، وكلُّ أنواع الفاكهة من تمر وعنب وتفَاح وغيرها... وكلُّ هذه الألفاظ لها دلالاتها الأصليَة ومرادفاتها واشتراكات في الألفاظ وغيرها**1.**

ثانيا؛ الألفاظ الدَالة على الطَبيعة السَاكنة: ومنها ما يدلُّ على النُّجوم والسَماء؛ نجم وسماء، شمس وكوكب، بدر وشهاب، قمر وهلال، فرقد وثريَا وغيرها.

ألفاظ دالَة على الأرض والثَرى: ومنها أرض وثرى، تراب وطين، وبر وغبراء، والأرض هي ما عليها نحن ونعيش على سطحها، وما تحتويه من جبال وروابي، صحراء ورمال، هضاب وتلال وغيرها.

وألفاظ دالَة على البحار والأنهار: من شطٍ و موجة،سهول، وديان، طرق، ودورات.

وألفاظ دالَة على أماكن تنبت فيها أشياء حيَة: كالحقل والرَوضة، الواحة والغابة، المروج والأدغال، الحدائق والبساتين**2.**

ومن خلال ما سبق نجد أنَ كلاّ من أنواع الطَبيعة ساكنها ومتحرِّكها له مرادفات واشتراكات لفظيَة، أو تضاد فيما بينها، والدَليل على ذلك أنَ السَاكن عكس المتحرِّك.

ð **مفهوم الكون:**

1- انظر: فايز رسمي الشّوامرة: ألفاظ البيئة الطّبيعيّة في شعر إيليا أبي ماضي، رسالة ماجستير،2006-2007، ص 95-106

2- المرجع نفسه. ص 110-125

أ- لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور أنَ: "الكون؛ الحدث وقد كان كونا وكينونة؛ والكائنة الحدث. وحكى سيبويه منذ كنت أي منذ خلقتُ. والكائنة: الأمر الحادث، وكوَنه فتكوَن: أحدثه فحدث. وكوَن الشيء أحدثه، والله مكوِّن الأشياء يخرجها من العدم إلى الوجود" **1**

والكون في المنجِّد من " كان كونا وكيانا وكينونة: حدث، وجد، صار... هو مجموعة الأجرام التي يتكوَّن منها العالم: "عناصر الكون"، عالم: "كون كروي"، الأرض وسكَانها... كوَن: خلق، صاغ: "كوَن الله الإنسان على صورته"، ركَب بالتَأليف بين أجزائه أو أحدثه...

تكوَن: كيفية حصول شيء ومراحل صيرورته، مجموعة الأشكال والعناصر التي تسهم في تكوين شيء..." **2**

وقد ورد الكون في القاموس المحيط على أنَه:" الحدث،كالكينونة، والكائنة،الحادثة.

وكوَنه: أحدثه، والله الأشياء أوجدها، والمكان: الموضع، كالمكانة، جمع: أمكنة... والتَكوُّن: التَحرُّك؛ وتقول للبغيض: لا كان، ولا تكوَّن..." **3**

ونقول: "كان كونا وكينونة... ولم يجئ من الواو على هذا إلَا أحرف: كينونة، وهيمومة، وديمومة، وقيدودة؛ وأصله كينونة بتشديد الياء... وكوَنه فتكوَن: أحدثه فحدث، والكيانة: وكنت على فلان أكون كونا؛ تكفَلت به... والكون واحد الأكوان... والاستكانة؛ الخضوع.

والمكانة المنزلة... والمكان والمكانة: الموضع؛ قال الله تعالى:" ولو نشأ لمسحناكم عن مكانتكم" **1**

1- ابن منظور: لسان العرب. ص 185-186

2- أنطوان نعمة وآخرون: المنجد في اللغة العربية . ص 1258-1259

3- الفيروزآبادي: القاموس المحيط. ص 743

ب- اصطلاحا: ما هو الكون؟ سؤال تبادلته الحضارات والعقول الإنسانية عبر التَاريخ منذ القديم، وذلك حسب أوجه عديدة قدَمتها مختلف العلوم.

"فالفلاسفة يعرفون الكون؛ حسب الفيلسوف الفرنسي كونت... على أنَه مجموع كلٌ ما يوجد (ماديًا)، وهذا يعني أنَ الكون واحد..." **2**

أمَا علماء الطَبيعة الفيزيائيون فيقدِّمون التَعريف نفسَه تقريبا: "فهذا أبول دايمس يعرِّف الكون في كتابه (الله والفيزياء الجديدة)، على النَحو الآتي: هو كلٌ شيء فيزيائي موجود، وأقصد بذلك كلٌ المادَة الموزَعة بين المجرَات ومن خلالها، وكلٌ أنواع الطَاقة. وكل الأشياء اللاَماديَة، مثل: الثقوب السَوداء والأمواج الجاذبيَة، وكل الفضاء أيضا. ولكن الفيزيائيين يؤكِّدون أيضا أنَ تعريف الكون لا يدخل فيه سوى ما هو قابل للإدراك والمعرفة"**3**

ومن هنا يمكننا اعتبار الكون ماديَات مرئيَة ومحسوسة، وأنَه كلٌ ما هو مسخَر في هذه الحياة سواء على سطح الأرض باعتبارها جزءا أساسيًا من هذا الكون وما تحتويه من جبال وأشجار، أنهار ومحيطات، وظواهر طبيعية مختلفة، أو خارج الأرض في الفضاء الخارجي، من كواكب ونجوم، نيازك ومجرَات.

والكون مكوَن من خمسة عناصر أساسيَة وهي: التٌراب، الماء، الهواء والنَار والمعادن من حديد، وذهب، وفضَة وغيرها...

أمَا عن الكون في القرآن الكريم فقد تحدَث عنه وعن عناصره الموجودة فيه في عدَة آيات منه.

1- الجوهري : الصحاح. ص 1252-1253

2- جمال ميموني ونضال قسوم: قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم. ص 12

3- المرجع نفسه . ص 13

"ولفظ (الكون) لم يرد في القرآن الكريم، ولكن علماء الإسلام استنتجوا وجود هذا المفهوم في الكتاب استنادا إلى آيات التَكوين- أي إخراج الأجسام والأشياء إلى وجود من العدم- والتَكوين قد أشار إليه عزَ وجلَ في آيات عديدة. ويضيف المتكلِّمون أنَ الكون مرادف للوجود، وأنَ العلماء يستعملون أيضا مصطلح (العالم) للإشارة إلى مجموع أجزاء الكون أو مجموع المخلوقات"**1**

õ **أنواع الكون:**

" لقد مرَ الكون عبر تصوُّرات في ذهن البشرِيَة وعلمائها بتغيُّرات جوهريَة، ويمكن تلخيص أهمَ تلك الصُّور في النَماذج الرَئيسة الآتية:

أ- **الكون الخرافي:** أو الميثيولوجي، والتَصوُّر الذي ساد لدى الإنسان خلال عصور ما قبل التَاريخ.

ب- الكون العضوي: الذي أنتجته الحضارات القديمة، ومنها اليونانية خاصَة.

ج- الكون الصُّوفي: وهو مجمل الأفكار التي قدَمها أقطاب الصُّوفيَة في الإسلام، من فكرة " الفيض" (الذَات الإلهية)، إلى مسألة "وحدة الوجود"؛ أي "وحدة الحق والخلق"

د- الكون الميكانيكي: الذي لا يخضع إلاَ للقوانين الميكانيكيَة.

هـ- الكون المتطوِّر: وهو النَموذج المعاصر... نظرِيَة الانفجار العظيم... (اكتشاف الإشعاع الكوني) **2**

õ **خلق الكون:**

1- جمال ميموني ونضال قسوم: قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم. ص 59-60

2- المرجع نفسه. ص 19-20

إنَ الحديث عن خلق الكون هو بطبيعة الحال؛ حديث عن خلق الطَبيعة باعتبار العناصر الطبيعيَة بنوعيها، جزء من هذا الكون المخلوق.

وقد ورد فعل "خلق" ومشتقَاته من القرآن أكثر مائتي مرّة، تستخدم بعض الآيات الكلمات مثل البداية (يبدأ) و(منشئ) و(فاطر)، والذي ابتدأ أوَلا (بادئ).

كما ورد "الله" وهو ربٌ الكون (المعين، الرَازق، والمدبِّر...) في أكثر من تسع مائة وخمسين آية، وغالبا بالكثرة نفسها الألفاظ " الله" أو "الرَب"، ولهذا لا مجال لإنكار الله أو تجاهل أنَه خالق السَماوات و الأرض بأيٍ شكل كان **1**

فالكون ليس مخلوقا من ذاته، أو موجودا بذاته، فالله يوجد الأشياء بقوله "كن" كخلق أوَلٍ لشيء المخلوق؛ لقوله تعالى: "بديع السَماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنَما يقول له كن فيكون" {البقرة. الآية: 17}

وقال أيضا:" أو لم يروا كيف يُبدئ الله الخلق، ثمَ يعيده إنَ ذلك على الله يسير، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثُمَ الله يُنشئ النَشأة الآخرة إنَ الله على كلٍ شيء قدير" {العنكبوت 19-20}

وعن بداية خلق الكون، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله صلَى الله عليه وسلَم بيدي فقال: "خلق الله عزَ وجلَ التُربة يوم السَبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشَجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثُلاثاء، وخلق النُون يوم الأربعاء وبثَ فيها الدَواب يوم الخميس، وخلق آدم –عليه السَلام– بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق؛ في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى اللَيل"**2**

1– وقار أحمد حسن: العلوم الفلكية والقرآن الكريم. ص 42

2– محمد فياض: إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان. ص 14

في هذا الحديث يتبيَن لنا أنَ خلق الكون كان عبر ستَة أزمنة، أو ستَة مستويات: "ففي يوم السَبت، خلق الله التُربة؛ أي الأرض الخام الأوَل الأوَل. وفي يوم الأحد، خلق الله تعالى الجبال. وفي يوم الثُلاثاء، خلق الله تعالى (المكروه)، وهو ما يقوم به المعاش ويصلح به التَدبير كالحديد وغيره من جواهر الأرض... وفي يوم الأربعاء... خلق الله تعالى (النُون) أي الحيتان؛ أي الأسماك والحيوانات البحريَة... وفي يوم الخميس، خلق الله تعالى الدَواب، وهي كلُ ما يدبُ على الأرض من طير و حيوان. وهنا اكتمل خلق الأرض؛ بجمالها وشجرها ومعادنها، وأسماكها وحيواناتها، هكذا بدأ الخلق... **1**

خلقت السَموات والأرض وما بينهما في ستَة أيَام، وهكذا بدأ خلق الكون ببداية خلق الأرض. لقوله تعالى: "الله الذي خلق السَماوات والأرض وما بينهما في ستَة أيَام ثمَ استوى على العرش ما لكم من دونه من وليٍ ولا شفيع أفلا تذكَرون"

إنَ خلق الأرض مسؤوليَة كبرى، بل هو معجزة ومن معجزات الله والدَليل على ذلك هو أنَ: "الأرض لوحدها تمَ خلقها في ظرف يومين من أيَام الله؛ أي ألفين سنة من سنوات الأرض، بينما جاء في الكون من أجرام وكواكب ونجوم ومجرَات... تمَ خلقه في يومين أيضا؛ أي ألفي سنة" **2**

قال تعالى: " قل أئنَكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك ربُ العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَر فيها أقواتها في أربعة أيَام سواء للسَائلين" {فصلت. الآية 9-10}

1- المرجع نفسه . ص 14-15

2- أمير ملاتي ربيعة: القرآن والعلم في فضاء المعرفة. ص 96

فالله خلق الأرض في يومين، وفي يومين آخرين أعطى الأرض معالمها الجيوفيزيائيَة كالجبال... وقد أعطى الله لكلً سماء أمرها أو قوانين وجودها وقوانين سيطرته، والشَمس والقمر والأرض وكلَ جرم سماوي والكون بأجمعه ملتزم بأوامر الله فيه... **1**

والله خلق النِظام الشَمسي في أيَام يختلف مقياسها الزَمني عن أيَامنا الأرضية، فلو كان هناك إله لكلً مجموعة من النُجوم والكواكب في خطا من الشَمس لحدثت فوضى بسبب اختلاف الإرادات والقوانين وتصارعها، فمن المستحيل أن يخلق كون أو يدار في ظلً نظام الاشتراك، وهذا ما يؤدِي بالإنسان بعد معرفته بنية الكون وأسراره وتطوُره عبر الزَمن إلى التَوحيد؛ أي الإيمان بوجود الله ووحدانيته.

وهكذا وبعدما أكمل الله عزَ وجلَ خلق الأرض وبارك فيها، وقدَر فيها أقواتها وجعل جبالها شامخة شاهقة، وأمطارها نازلة، وأنهارها جارية، وأشجارها نامية، وأطيارها تعلو إلى السَماء وتهوي إلى الأرض، وحيوانها يجري في نواحيها وباطنها عامر بالجواهر...

ما كان إلاَ مخلوق يسود سيادة على هذا كلِه؛ مخلوق فيه الصِفات المؤهَلة لتلقِي تشريعات الله عزَ وجلَ وإرساء قواعد الحق والعدل في الأرض.

ولتحقيق ذلك اتَجهت إرادة الله سبحانه وتعالى إلى خلق هذا النَائب وهذا الخليفة، وبشَر سبحانه الملائكة أجمعين بالنَبأ العظيم**2**، وقال لهم: "إنِي جاعل في الأرض خليفة" {البقرة. الآية:30}

وهنا خلق الله أبو البشرِيَة آدم (في يوم الجمعة الطَور السَابع)، وفي هذا اليوم قال سيِد الخلق –صلَى الله عليه وسلَم– عن أبي هريرة رضي الله عنه: "خير يوم طلعت فيه

1– سيد وقار أحمد حسن: العلوم الفلكية في القرآن الكريم. ص 55

2– انظر: محمد فياض: إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان. ص 16

الشَمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنَة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم السَاعة إلاَ في يوم الجمعة"**1**

والكون بما فيه من أشياء حيَة وجميلة، وإنَما سخَرت كلُّها لخدمة الإنسان، وأوَل إنسان سخَر له هذا الكون هو آدم عليه السَلام، وكما يذكر في معظم المؤلَفات التَاريخيَة أنَ خلق حوَاء تمَ بعد خلق آدم عليه السَلام.

وعن طبيعتنا البشريَة أو المَادَة التي خُلق منها الإنسان فـ: "إنَ الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدَث عن خلق الإنسان الأوَل –آدم عليه السَلام– تشير إلى أنَ الله تعالى خلقه من تراب**2**، لقوله تعالى: "إنَ مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثمَ قال له كن فيكون" {آل عمران. الآية: 09}

فالإنسان خلق من تراب ويعود في نهاية حياته إلى أمَه التُّراب لقوله تعالى: " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمن. الآية: 12}

ويعتقد العلم الحديث أنَ الكون خُلق في زمن محدَد، وسينتهي في زمان محدَد لاحق، فهو ليس بسرمدي، لا في الماضي ولا في المستقبل وإنَ له بداية وله نهاية...

ويعتقد الفلكيُّون بأنَ الكون نشأ قبل 10 إلى 20 مليون سنة، نتيجة انفجار هائل يدعى الانفجار العظيم ... بسبب ضغط المَادَة كلَها في الكون... ثمَ أخذ الكون يتوسَع منذ تلك اللَحظة، حسب هذه النَظريَة،و بما أنَ كلَ المجرَات...تبعد عن بعضها بسرعات هائلة فلا بدّ أن يكون هناك بداية لتوسع الكون أي بداية لكون بنفسه، وتدل معظم البحوث على أن توسع الكون سيستمر إلى الأبد.

1– محمد فياض: إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان. ص 15

2– عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم. مكتبة وهبة. القاهرة، ط1 ، 1990م، ص 11

وثمة دراسات تشير إلى أن توسع الكون قد يتوقف ويبدأ بالتقلص" **1**

ويبقى الحديث عن بداية خلق الكون متواصلا وبلا حدود باعتباره مخلوق من الله العظيم الجبار، بأسراره وغموضه، فلا يمكن الإحاطة بكل جزء من أجزائه بالمعرفة اليقينية، لأن هذا مستحيل فهو من علم الله فقط.

- **تصوّرات الكون عند الحضارات القديمة:**

إنَّ الخاصيَّة العامَّة التَّي طبعت تصوّرات الكون أو السَّماء عند الحضارات القديمة هي أوّلا ارتباطها بعالم الآلهة، وثانيا اعتقادها الرَّاسخ بوجود اختلاف أساسي بين الأرض والسَّماء، الشَّيء الذي لم يسمح بوضع نظريات للكون بالمعنى الشَّامل والموحَّد، وثالثا اعتقادها بأنَّ الأرض هي مركز الكون، وأنَّ هذا الأخير (الكون؛ أي الأرض والسَّماء) هو إمَّا في حالة استقرار أزلية أو أبدية أو في تغيّر دوري؛ أي أنَّه يشهد تغيّرات وتطوّرات، لكن بطريقة تجعله يعود إلى حالته الأصلية بعد زمن مقدَّر. وأهمّ من ذلك كلّه جهل تام بالأبعاد الحقيقية للكون، إذا كان الإنسان يظنّه صغيرا جدًا (مقارنة بما نعرفه اليوم)**2**، ومن ذلك قول أفلاطون: "نحن ... الذين ننوي الخوض في طبيعة الكون، كيف خلق أو كيف وجد بغير خلق، إن كنَّا نملك ذرّة من العقل لا بدَّ أن نتوجّه إلى الآلهة وندعو أن يكون حديثنا مقبولا لديها أوّلا، ومن ثمَّ لنا نحن"**3** .

1- الكون عند المصريين:

1- سيد وقار أحمد حسن: العلوم الفلكية في القرآن الكريم. ص 46

2- جمال ميموني ونضال قسوم: قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم، ص 28

3- المرجع نفسه. ص 27

صوَّر المصريِّون السَّماء في العهد الأوَّل (القديم) من حضارتهم، قبل حوالي خمسة آلاف سنة، على شكل بقرة (وهي أعظم وأجمل الحيوانات عندهم)؛ حيث وضعت النُّجوم على سطح بطنها، وصوَّرها أحيانا أخرى على هيئة امرأة تحمل قرني بقرة (آلهة) على رأسها، وهي منحنية على الأرض ومرتكزة على ذراعيها وساقيها.

وفي العهد الثَّاني (الحديث نسبياً) من تلك الحضارة تصوَّر المصريُّون أنَّ السَّماء تقوم على أربعة أعمدة أو جبال موضوعة في أركان العالم الأربعة، وشبَّهت السَّماء بأرض مصر، فالفضاء هو بحر أو نهر واسع شاسع تقوم الشَّمس (الآلهة) بقطعه كلَّ يوم على متن قارب بنته الآلهة، وتبقى الشَّمس طوال اللَّيل في العالم السُّفلي (المائي) الذَّي يعيش فيه الموتى، وهنا تتجلَّى وتتأكَّد الفكرة الأساسيَّة الأولى التي أشرنا إليها في مقدَمة هذا الفصل؛ وهي أنَ تصوَّرات الكون كانت كثيرا ما تمزج بالاعتقادات الدِّينية والغيبية والتصوُرات الميتافيزيقية.

أمَّا خلق الكون في تصوُّر المصريين فقد تمَّ ابتداء من الماء الأزلي، وهذا مثال لفكرة الأزلية –مع الخلق– وهذه نظرة سوف نصادفها عند فلاسفها وعلماء آخرين، يونانيين ومسلمين خاصَّة. وبقيت الأرض ملتصقة بالسَّماء عن طريق اتَصال آلهة السَّماء "نوت" بزوجها إله الأرض "جب"، إلى أن قام الإله "شو" والد "نوت" برفع السَّماء بيديه ورفع كلَّ المخلوقات –كلاً مع سفينته، التي هي نجم سماوي– فاتَّخذ الكون (السَّماء والأرض) بهذه الطَّريقة شكله المعروفة اليوم.

ورغم أنَّ السَّماء كانت تشكَل أهميَّة كبيرة بالنِّسبة للمصريِّين، سواء من ناحية العبادات أو المعاملات (الزَّرع، الحصاد؛ أي الفصول والأزمنة)، فإنَّ المعرفة الفلكية ظلَّت سطحية وشكليَّة (على الأقلَّ فيما وصل إلينا)، إذ لم تظهر أرصاد دقيقة أو قياسات وحسابات

فلكية متطوَرة. وما يهمُّنا هنا على وجه الخصوص هو تصوُّرهم للكون، وقد عرضنا ذلك في الفقرات السَّابقة**1**

2-الكون عند البابليين:

إنَّ سكَّان بلاد الرَّافدين القدماء كانوا يعتقدون أنَّ الكون يسير وفق نظام يمثِّل إرادة الآلهة، أكبرها "آنو" الذي يسكن أعلى نقطة في السَّماء ويتحكَّم فيها. وهناك أيضا "إكليل؛ إله الهواء والجوِّ، و"إيَا" إله الأرض والماء. ولم نجد في المصادر التي رجعنا إليها إشارات إلى خلق الكون أو تطوُّره في تصوُّرهم، ولا عن نموذج للسَّماء وأجرامها. لكنَّنا نعلم أنَّ البابليِّين أعطوا القمر والشَّمس خاصَّة، والكواكب والنُّجوم قيمة عالية حتَّى ألهوا بعضها. ووصل عدد الآلهة عندهم إلى مائة أو أكثر، بحيث يحكم كلٌّ إله منها جزءا وظاهرة من الكون، ويسير جانبا من حياة الإنسان...

ومن أهمَ الآثار التي تركتها الحضارة البابلية للإنسانية في ميدان الفلك فكرة البروج وهي أصل تقسيم السَّماء إلى اثني عشر قسما أو ساعة؛ فبتقسيم دائرة البروج zodical band إلى اثني عشرة قسما بواسطة النُّجوم الثَّوابث تحصَّلوا على ما يعرف بالبروج الإثني عشر constellation of the zodicac، وقد أخذته البشرية عنهم بالرموز الممثِّلة للكواكب ومجموعات النُّجوم. وكان لهذا الابتكار أثر بالغ على أحد أهمَ النَّشاطات الإنسانية، وهو الذي كان يعتبر علما، بل لا يفرَق بينه وبين علم الفلك الحقيقي**2**.

1- جمال ميموني ونضال قسوم: قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم. ص 31-32

2- المرجع نفسه. ص 32-33

3-الكون عند الإغريق:

كانت نظريات الكون عند الإغريق أغلبها قائم على فرضيًة -بل مسلمة- أساسية تتمثًل في أنً الأرض هي مركز الكون، ويمكن أن نقول إنً نظريات اليونانيَين كانت تتًسم أكثر بالطابع العلمي، وقد سادت على الأقل حتًى العهد الإسلامي، وربًما حتًى العصر الحديث، وهذا لم يمنع فلاسفة اليونان من أن يتأثًروا كثيرا، وفي البداية خاصًة بآراء الحضارات وأساطيرها التي سبقتهم فمثلا "تاليس" كان يعتقد أنً الفضاء كلًه ماء تطفو الأرض في وسطه.

والكون عند اليونان يمكن تسميته بالكون العضوي أو الحيواني، باعتباره شبيه للكائن الحيَ، المكوًن من أجزاء تتحرًك وتتوافق باستمرار بحيث تجعل الجسم الكليٌ يستفيد من هذه الحركات أو التًفاعلات الجزئية.

وهناك فكرة أخرى جمعت التًصوٌر الهيليني للكون هي أنً هذا العالم "المرئي" يتحكًم فيه "عقل" يسيَره ويوجَهه، ويجب التًأكيد على أنً مفهوم العقل هنا يختلف تماما عن مفهوم الإله، سواء عند الحضارات القديمة أو الحديثة.

أمًا عن تركيب الكون، فكان "فيثاغورس" يرى أنً الأرض كروية الشًكل، وهي قريبة من مركز الكون، والكواكب تدور حولها في مدارات منفصلة ومائلة عن خطَ الاستواء السًماوي. ولكنًه قدًم اقتراحا ثانيا يقضي بوجود نار مركزية في الكون يدوَر الكلً (بما في ذلك الأرض) حولها في مدارات دائرية، وذلك لتفسير دوران السًماء (الشًمس، النٌجوم، والكواكب ...) في يوم واحد، وهو ما يدلٌ عليه تعاقب اللًيل والنًهار.ولمًا كان فيثاغورس واعيا أن ذلك التًصوٌر يواجه مشكل عويص وسيط،وهو أنً هذه النًار المركزية لم يشاهدها أحد، قال أنًها لا ترى من اليونان، ويمكن الإطلاع عليها من مناطق الأرض

النًائية، أو ربمًا يكون سبب ذلك وجود كوكب مجهول بين الأرض والنًار، سمَي بقرين الأرض**1**

وقد اعتمد على فلسفته العددية للتًأكيد على أنً هذا الكون يحتوي على عشرة أجرام إذ العدد العاشر هو أكثرها روعة رتبًها كالتًالي، ابتداء من النًار المركزية: قرين الأرض القمر، الشًمس، الكواكب الخمسة المعروفة آنذاك (وهي عطارد والزَهرة والمرَيخ والمشتري وزحل).

أمًا "أميدوكليس" (حوالي 490-430م)، فهو الذي رأى أنً في الكون أربعة عناصر ماديًة أساسيًة هي (النًار والهواء والماء والتٌراب)، وهي عناصر خالدة غير فانية في نظره، مع إقراره بإمكانية التًغيٌر في النًوعية. كما قال أيضا إنً تلك العناصر بإمكانها التًفاعل إمًا عن طريق تطبيق قوى جاذبية أو تنافرية متبادلة وإمًا عن تأثير الآلهة. وقدًم هذا الفيلسوف أيضا تصوّرا حول نشأة الكون وتركيبه، فظنً أنً الكون ظهر إثر تقلٌص هواء كثيف جدًا في شكل كرة صلبة شبه بلورية، وأنً الضًغط القويً للهواء على النٌجوم (النارية) يجعلها ثابتة في أماكنها، والكواكب تجول بحرَية في الفضاء. أمّا القمر فقال إنًه مكوَن من هواء مضغوط وممزوج بالنًار. وتصوٌر كذلك أنً الكون نصفان منفصلان، واحد من نار وآخر من هواء (مع قليل من النًار)، وهما يدوران باستمرار تحت دفع النًار للهواء، ممًا يسبَب النًهار والليًل**2**.

1- جمال ميموني ونضال قسوم: قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم. ص 33-34

2- المرجع نفسه. ص 37

4- الكون عند الرومان:

إنَّ الحضارة الرومانيَّة لم تبدي اهتماما كبيرا بعلوم الكون وعالم الفكر، ولم تخرج للإنسانية علماء وفلاسفة عظاما أثَّروا بفكرهم وآثارهم على من تلاهم من الحضارات والشُّعوب. بل أكثر من ذلك، يمكن القول إنَّ الحضارة الرُّومانية -في الموضوع الذي ندرسه- عادت بفكرها بآلاف السَّنين إلى الوراء (مقارنة بنتائج وتصوُّرات الإغريق)، وذلك تحت ضغط الاعتقاد والوجود الكنسي، ونذكر مثالا لهذا الفكر هو "لاكتانتيوس" الذي يعدّ من أكبر خصوم كروية الأرض.

ورغم ذلك ظهر بعض الفلاسفة الرُّومان اللَّذين اتَّسمت آراؤهم بقسط كبير من الاعتدال والموضوعية، منهم "باسيل" و"بوتيوس" (470-525م). فقد كان باسيل متأثَرا بعلم الفلك اليوناني إذ فسَّر تعاقب الفصول الأربعة باعتبار حركة الشَّمس في دائرة البروج. وكان لا يؤمن بكروية السَّماوات، ولكنَّه قال بوجود ماء فوق قبَّة السَّماء، وذلك لإبقائها باردة ولمنع الكون من الاحتراق بالنَّار السَّماوية. ووافقه في ذلك القدَّيس "أوغسطين" (354-430م) الذي أضاف أنَّ كروية الأرض لا تتماشى مع آيات الكتاب المقدَّس؛ ويبدو أنَّ أوغسطيس كان يأخذ بآراء الإغريقية التي تتعارض مع الكتاب. واعتبر بعضهم -ومنهم القدَّيس أمبروز- بأنَّ شكل الأرض ليس مهمًا، وأنَّ السَّماء تحيط بالأرض وهي مكعَّبة من الخارج فتسمح بوضع الماء فوقها للأسباب المذكورة آنفا (البرودة ودم الاحتراق).

أمَّا "بوثيوس" فكانت آراؤه فلسفية أكثر منها فلكية، ولكن ذلك لا يقلَّل من أهمَيتها، إذ اعتبر الكون تيليولوجيا، أي يسير نحو هدف مرسوم، ونفى عن الإنسان مكانته المركزية، فرأى أنَّه ليس سوى كائن متناه ومهمل بالمقارنة مع هذا الكون الشَّاسع[1].

5- الكون عند الهنود:

1- جمال ميموني ونضال قسوم: قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم. ص 45-46

كانت دراسات الفلك عندهم تتمٌ أساسا لغرض التَّنجيم الذي عرف عندهم تطوٌرا علميا. ويبدو أنَّ معلومات الهنود حول السَّماء والكون اعتمدت أساسا على المراجع اليونانية.

ويعتبر "روماكا سيدهانتا" و"فاراهيميرا" أهم علماء الفلك في الحضارة الهندية، ويتجلَّى التَّأثير الهيليني عليهما بوضوح. وكانت مدرسة "سيدهانتا" ترى أنَّ الأرض كرويَّة ولا ترتكز على شيء في الكون، رادّة بذلك التَّصوٌرات الميثيولوجية القديمة التي اعتبرت الأرض مستندة على رأس حيوان، يقوم هو الآخر على ركيزة أخرى وهكذا...

ويبدوا التَّأثير اليوناني كذلك في صورة الكون عند الفيلسوف الهندي "بهاسكارا آشاريا" الذي كان يرى أنَّ الأرض هي مركز الكون وأنَّ الكواكب الأخرى تدور حولها بسرعة خطَية موحَّدة. كما تمَّت تبادلات بين علماء الهند وعلماء الإسلام، ووجد الفلكيون الهنود طريقهم إلى قصر الخليفة هارون الرَّشيد ثمَّ المأمون والمنصور، الذين أمروا بترجمة الكتب الأساسية في الفلك، من الهندية إلى العربية، ممَّا سمح بالتَّعرٌف على بعض الطٌرق الرَياضية لحلَ المسائل والمعادلات الفلكية.كذلك كانت لرحلات علماء المسلمين إلى الهند–البيروني خاصَّة– آثار هامَّة في التَّطلٌع على المعارف العلمية الهندية ونقلها إلى بلاد الإسلام وحضارته**1**.

6–الكون عند الصَينيين:

1– جمال ميموني ونضال قسوم: قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم. ص 46–47

كان تقدّم علم الفلك عند الصّينيين موازيا هو الآخر لتطوّر التّنجيم. ونلاحظ هذا التّوازن في أحدى أمّات كتبهم في التّنجيم. وهو كتاب المتغيّرات للفيلسوف "كونفوشيوس" (551-449م)، وقد احتوى على معلومات فلكية وآراء كونية عديدة. وإنّ أهم فكرة أخذها كونفوشيوس هي مفهوم الأقطاب المتقابلة، "يين" و"يانع"، التي من تفاعلها الدّيناميكي تحدث كلّ الظواهر الكونية، وربّما حتى عملية الخلق ذاتها. والسّماء بقوّتها العظيمة الخلاّقة، تمثّلت في القطب "يانغ" المذكّر، أمّا الأرض بقدرتها الولادية الأنثوية فتمثّلت في القطب "يين"، وبالتّالي كانت الأرض سفلى وساكنة، وكانت السّماء عليا ومتحرّكة. وبالمفهوم نفسه كانت الشّمس الحارّة السّاطعة والجافّة من "اليانغ" في نظر كونفوشيوس إلى دورية الظواهر الكونية، كاللّيل والنّهار، وتعاقب الشّمس والقمر، وكذلك الشّتاء والصّيف، السّنوات والعصور... ويبدو أنّ الحضارة أبدعت في ميدان الرّصد والاكتشافات الفلكية. فقد بنت مراصد جدّ متقنة فنّياً وعلميًا، وكانت أحيانا تؤدّي وظيفة المعبد وترمز إلى أنّ السّلطة الإمبراطورية مستمدّة من السّماء. كما كانت الأجهزة الفلكية تعتبر أدوات وطقوسا دينية مقدّمة. وهذا ما يؤكّد أنّ هذه الحضارة كانت هي الأخرى تمزج الطّبيعة بالميتافيزيقا وتتطلّع إلى السّماء بنظرة علمية ودينية في آن واحد.

ويجدر بنا أن نشير إلى بعض الاكتشافات الهامّة والمتقدّمة (تاريخيا وعلميًا)، مثل اكتشاف البقع الشّمسيّة السّوداء، وتسجيل الانفجارات السّماوية (النّجمية).

وأخيرا نشير إلى براعتهم في تقدير الزّمن ووضع تقاويم شمسية عالية الدّقة، إذ حدّد طول السّنة الشّمسية بـ365.242190 يوما من قبل "سينغ يونغ لو"[1]

1- جمال ميموني ونضال قسوم: قصة الطبيعة من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم. ص 48-49

الفصل الثاني

دلالة ألفاظ الكون والطبيعة في القرآن الكريم؛ الجانب التطبيقي

دلالة ألفاظ الطبيعة والكون في القرآن الكريم؛ الجانب التطبيقي

تكررت مظاهر الطبيعة والكون في القرآن الكريم، تتحدث عن آفاق الكون ومشاهد الطبيعة للفت أنظار الملتقي إلى قدرة الله تعالى، وإنبائه بمصيره المحتوم، ومصير الكون الذي يحيط به.

إن القرآن الكريم يطوف بقارئه في أرجاء الطبيعة والكون، وينطلق به من الأرض التي يعيش فيها، وما يحيط به من جبال كالأوتاد، وبحار ذات أمواج عالية، وأنهار وجنات ونخيل، وزورع، وأمطار ونبات.

قال تعالى: (**والأرض** مددناها وألقينا فيها **رواسي** وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) {الحجر 19-20}

أي أن الله بسط الأرض على وجه الماء، وجعل فيها جبالا ثوابت، وقد كانت الأرض تميد إلى أن أرساها الله بالجبال. وجعل فيها من لستم له برازقين من الدواب والأنعام أي: جعلناها لكم وكفيناكم رزقها، و"من" في الآية بمعنى "ما" كقوله تعالى: (فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين) {النور. الآية 45}[1]

وقال تعالى: (الذي جعل لكم **الأرض** مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء **ماء** فأخرجنا به أزواجا **من نبات** شتى، كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك، لآيات لأولي النهى) {طه: 53-56 }.

ويحدثنا القرآن الكريم عن البر والبحر، ويخبرنا أن مظهرهما بما يحويانه من مظاهر حياتية لنبتغي به رزق الله ونشكره على نعمة، قال تعالى (وهو الذي سخر **البحر** لتأكلوا منه لحما طريا وتستخر جوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) {النحل. الآية: 14}

1- البغوي : تفسير الغوي. دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض. ص 375

ويحدثنا عن الليل والنهار، والشمس والقمر، فيخبرنا عن الحقيقية الكونية التي تتمثل في كون الشمس نورا للأرض، والقمر نور لها في الليل، وأن الشمس والقمر هما ضمن نظام كوني محكم الإتقان، لا يختلطان أبدا، ولا يضربان، قال تعالى: (وآية **لهم الليل** نسلخ منه **النهار** فإذا هم مظلون، **والشمس** تجري لمستقر **لها** ذلك **تقدير** العزيز **العليم والقمر قدرناه** منازل حتى عاد **كالعرجون** القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في **فلك يسبحون**) {يس. الآية 37} وقال سبحانه: (وسخر لكم **الليل والنهار والشمس والقمر. والنجوم** مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) {النحل. الآية: 12}.

وقد اعتبر أئمة البلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ**﴾ استعارة أصلية تبعية، المقصود فيها بالتشبيه هو حالة زوال نور النهار عن الأفق فتخلفه ظلمة الليل لقوله ﴿**فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾ [يس: 37] ابن عاشور: التحرير والتنوير 1/ 3521. وشبه خروج النهار من الليل بانسلاخ الجلد المسلوخ، إذ إن السلخ أدل على الالتحام من الإخراج وهذا تشبيه في غاية المناسبة1 .

لأن انسلاخ الشيء عن الشيء أن يبرأ منه ويزول عنه حالاً فحالاً كذلك انفصال الليل عن النهار والانسلاخ أبلغ من الانفصال لما فيه من زيادة البيان2

وعبر القرآن الكريم عن حال خروج النهار وغشيان الليل المظلم، بلفظة (نسلخ) بدل التعبير عنها بلفظة ينتهي أو يخرج، ليعبر عن التلاحم الحاصل بين آخر الليل وبداية الفجر والنهار.

وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بالليل والنهار في كتابه العزيز، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذْ دْبَرَ**﴾ [المدثر: 33] ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ**﴾ [التكوير: 17] ﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا**﴾ [الشمس: 3]

1– ابن الأثير: المثل السائر. م1 ، ص 383

2– الزركشي: البرهان في علوم القرآن. م 3 . ص 436.

والقسم بهما، أكبر دعوة للتدبر في الطبيعة ومظاهر الكون، الدالة على قدرة الله عز وجل، وما أودع الله فيها من عظيم حكمته ومظاهر عظمته وقدرته، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: 190] .

ويضعنا الله عز وجل أمام مشاهد الطبيعة، في مرات عديدة، ليرينا كيفية حدوثها، والهدف منه . قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) . {إبراهيم . الآية: 32-33}

ولما نفى جميع الأسباب النافعة في الدنيا في ذلك اليوم، كان كأنه قيل: فمن الحكم فيه حتى أنه يسير سيرة لا نعرفها؟ فقيل : لله {أي الملك الأعلى المحيط بكل شيء؛ ثم أتبعه بصفات تدل على ما دعا إليه الرسل من وحدانيته وما أخبروا به من قدرته على كل شيء فلا يقدر أحد على مغالبته، وعلى المعاد وعلى غناه فلا يبايع، فقال الذي خلق السماوات والأرض {وهما أكبر خلقًا منكم وأعظم شأنًا، ثم عقبه بأدل الأمور على الإعادة مع ما فيه من عظيم المنة بأن به الحياة، فقال : وأنزل من السماء ماء، ولما كان ذلك سبب النمو قال : فأخرج به، أي بالماء الذي جعل منه كل شيء حي من الثمرات {أي الشجرية وغيرهما} رزقًا لكم {بعد يبس الأرض وجفاف نباتها، وليس ذلك بدون إحياء الموتى؛ ثم أتبعه ما ادخره في الأرض من مياه البحار والأنهار، وذكر أعم ما يظهر من البحار فقال : وسخر لكم الفلك وعلل ذلك بقوله: لتجري في البحر {ولما كان ذلك أمرًا باهرًا للعقل، بين عظمته بقوله: بأمره {ولما كانت الأنهار من النعم الكبار بعد نعمة البحار، قال : وسخر لكم الأنهار {ثم أتبعه ما جعله سببًا لكمال التصرف وإنضاج الثمار

المسقيّة بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض فقال : وسخر لكم الشمس والقمر {حال كونهما} دائبين {أي في سيرهما وإنارتهما وما ينشأ عنهما من الإصلاح بالطبخ والإنضاج في المعادن والنبات والحيوان؛ قال الرماني: والدؤوب: مرور الشيء في العمل على عادة جارية فيه؛ ثم ذكر تعالى ما ينشأ عن وجود الشمس وعدمها فقال : وسخر لكم الّيل {أي الذي القمر آيته} والنهار {أي الذي الشمس آيته، يوجد كل منهما بعد تصرمه، ولو كان أحدهما سرمداً لاختل الحال بعدم النبات والحيوان كما هو كذلك حيث لا تغرب الشمس في الجنوب وحيث لا تطلع في الشمال. 1

ويعرض الله عز وجل في مشهد آخر مراحل خلق الإنسان، مقرنا إياه بخلق السموات والأرض، مبينا كيف ينتفعون بعد ولادتهم من تلك الأرض التي يولدون عليها وتحيط بهم مظاهرها من كل جانب، مسخرة لهم جميعا، قال الله تعالى: (خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون. خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين. والأنعام خلقها، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين. هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب و منه شجر فيه تسيمون. "ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم- الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآية لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها. وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، وألقى في الأرض رواسي أن

1- عبد الرحمن بن محمد القماش: الحاوي في تفسير القرآن العظيم. ص 11783

تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون. أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون.). "النحل 2- 17".

- **حركة مظاهر الطبيعة والكون في القرآن الكريم :**

يصور لنا القرآن الكريم الطبيعة والكون على أنها مسرح لجريان الأحداث وتقلبات الحياة، وفق حركة تتغير دائما أبدا، من الصغر إلى الكبر، ومن الكبر إلى الصغر، ومن الهدوء إلى الهيجان، ومن الهجيان إلى الهدوء، ومن القفر إلى النبات والاخضرار، ومن الاخضرار إلى الاصفرار والاضمحلال، ومن الحياة إلى الموت، ومن الموت إلى الحياة.

قال تعالى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) {الحج. الآية 5} . وقال سبحانه (ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يولف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله) {النور. الآية 43-44}. وقال سبحانه: (وسخرلكم الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى)، (والشمس تجري لمستقر لها... لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك **يسبحون**). (وسخر لكم الشمس والقمر **دائبين**). (أفلا يرون أنا نأتي **الأرض ننقصها** من أطرافها). (والسماء بنيناها بأيد وإنا **لموسعون**).

ومثل هذه الآيات الواردة عن الكون آيات عن الإنسان وأطوار خلقه كقوله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة **من طين** ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم جعلنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم **أنشأناه** خلقا آخر فتبارك **الله** أحسن الخالقين).

ويحدثنا الله تعالى عن حركة الكون، بعرض مشهد تعاقب الليل والنهار، وارتباط بعضهما ببعض، فلا يسبق أحدهما الآخر، ولكنهما يسيران في اطراد: (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر

قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)

وعن إحياء الأرض بالماء الذي ينبت الأرض الميتة، ينزل على الأرض فيتوغل فيها، ثم يعمل عمله بإحياء النبات والبذور فيخرج نخيلا وأعنابا وأكلا مما لذ وطاب للناس. قال تعالى: (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون. فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون) {المؤمنون. الآية 18}.

وقال تعالى: (ألم تر أن الله **كون يزجي سحايا** ثم يؤلف **بينه** ثم يجعله ركا**ما فترى الودق** يخرج من خلاله) {النور}.

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء **فسلكه** ينابيع في الأرض ثم **يخرج** به زرعاً مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرأ. **ثم يجعله** حطاما إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب) {الزمر. الآية: 21}

ينبهنا القرآن إلى ما في هذه السنن المطردة في **حوادث الكون** والقوانين المنتظمة في الطبيعة من صفات (كيفية) كاختلاف الألوان والأشكال، قال تعالى: (أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن **الجبال** جدد . بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) "{فاطر. الآية:27}

ويفصل لنا الله تعالى بعض ألوان الفواكه التي تنتجها الأرض بمعية الماء، قال تعالى: (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء. فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه) {الانعام. الآية: 100}.

وقال سبحانه: (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل **والزرع مختلفا** أكله والزيتون والرمان **متشابها** وغير **متشابه**) {الأنعام. الآية: 142}

كما ينبهنا إلى ما في السنن الكونية كذلك من صفة (الكمية) وقابلية العدد والإحصاء والحساب، كما في قوله سبحانه: (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) {الحجر. الآية: 19} .

(وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة. لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد **السنين والحساب** وكل شيء فصلناه تفصيلا) " {الإسراء. الآية:12}.

أصناف الكائنات في الطبيعة:

نبه القرآن في مرات عديدة، بشكل واضح إلى أصناف ما في الطبيعة وأنواعها، وأورد أمثلة لتصنيفها مع الإشارة إلى **الاشتراك** الجامع أو التباين المميز للأنواع، قال سبحانه: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) {الأنعام. الآية: 38}

وقال عز وجل : (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع). {سورة النور. الآية 45}

إن مظاهر الكون والطبيعة في القرآن الكريم، قدّمت لنا وفق أوصافها وحركاتها وسكناتها وتعدد أنواعها ، وتبدلها وجريانها واطرادها، وحياتها وموتها، من أجل التأمل فيها، واستعمال العقل المدرك للأشياء عن طريق الحواس، حتى نبلغ مبلغا عظيما من الإيمان بالله تعالى وقدرته، قال الله عز وجل: (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) {العنكبوت. الآية: 20}

وهكذا فإن الله تعالى يبين لنا من خلال مظاهر الطبيعة والكون قدرته اللامحدودة، وأنه الخالق، وإنما أمره إذا أراد لشيء أن يقول له كنْ فيكون، سبحانه وتعالى، قال: (خلق السموات والأرض بالحق... أفلا تذكرون) {النحل. الآية: 2-17}، (أم خلقوا من غير شيئ ، أم هم الخالقون). (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) {النحل. الآية: 30}. (أفمن يخلق كن لا يخلق ، أفلا تذكرون) {النحل. الآية: 16}. (أم خلقوا السموات والأرض بل لا يؤمنون) . (أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيى به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون).

- **أغراض تناول مظاهر الكون والطبيعة في القرآن الكريم:**

إن الله تعالى من خلال مظاهر الكون والطبيعة التي أوردها في القرآن الكريم، أوجب التفكير والتدبر في آياته وخفايا الوجود، وأسرار الكون الواسع، فقال تعالى (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاّ بِسُلْطَانٍ) {الرحمن. الآية: 33}

ليصلوا بعد هذا التفكر والبحث العلمي في مسائل الكون والطبيعة إلى معرفة المبدع الأول لهذا الكون بكل ما فيه، من أدناه إلى أضخمه، فيتيقنوا بأن الله واحد أحد له القدرة المطلقة على الكون وما فيه.

- **دلالة الدعوة إلى التأمل في مظاهر الطبيعة والكون:**

قال تعالى : { **قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** } (سورة يونس الآية : 101). والفعل (انظروا) هو فعل أمر لوجوب تأمل الإنسان ببصره إلى السماء والأرض وضرورة تفكره بحسه وبصيرته في السموات والأرض، وفي حال النبات في مراحل نموه ثم إنتاجه حتى يصل إلى مرحلة النضج والإثمار فقال سبحانه : {**انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ**} سورة الأنعام الآية : 99 . والمراد بالنظر هنا : نظر الاعتبار لا نظر الإبصار المجرد عن التفكر [1] أي : انظروا نظر اعتبار وتبصر إلى ثمر النبات كالزيتون والرمان وغيرهما كيف يخرج صغيراً ضئيلاً لا يكاد ينتفع به ، وإلى حال نضجه حيث يصبح ذا نفع عظيم ولذة كاملة [2] .

وحث الله تعالى الناسَ بتوجيه أنظارهم واستنهاض أفكاره وأفهامهم وإيقاظ حواسهم، وتنبيه مشاعرهم إلى آيات الله تعالى [3] .ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى في سورة يونس : { **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ** } (سورة يونس الآيتان : 5 ، 6)

وفى الآية جعل الآيات الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لقوم يتقون لأن السياق هنا تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بالآيات ليعلموا أن بعدهم عن التقوى هو سبب حرمانهم من الانتفاع بالآيات ، وأن نفعها حاصل للذين

1- القرطبي : تفسير الإمام القرطبى . م 3 . ص 2571 .

2- التفسير الوسيط . تأليف لجنة القرآن والسنة بمجمع البحوث الإسلامية 3 / 1296 بتصرف .

3- انظر : أحمد عبد الرحيم السايح: مستقبل الحضارة الإسلامية . صـ 59 ، هدية مجلة الأزهر ، شهر جمادى الأولى من عام 1405 هـ .

يتقون أي يحذرون الضلال، فالمتقون هم المتصفون باتقاء ما يوقع في الخسران فيبعثهم على تطلب أسباب النجاح فيتوجه الفكر إلى النظر والاستدلال بالدلائل [1] .

وقوله تعالى في سورة يونس أيضاً : { **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** {سورة يونس الآية : 67 }، وجعل هذه الآيات لقوم يسمعون لما أن سماع تلك الآيات والإنصات إليها وسيلة التنبيه إليها والتفكر فيها كما قال تعالى عن الكفار في الآخرة : { **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**} {سورة الملك الآية : 10}

وقوله تعالى : { **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**} {سورة الرعد الآيتان : 3 ، 4}

وقوله تعالى في سورة طه على لسان موسى في رده على فرعون : {**قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى. قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى**} {سورة طه الآيات : 49 – 54}

وقوله تعالى في سورة الزمر: {**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ**} {سورة الزمر . الآية : 21}

1- انظر : الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير . ص 98 .

وقوله تعالى في سورة الجاثية : { **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } (الجاثية الآيتان : 12 – 13)

ومن أهم الألفاظ الدالة على ضرورة التفكر والتدبر في مظاهر الكون : { **لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ**} ، { **لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } ، { **لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } ، { **لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } ، { **لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى** } ، { **لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ** } .

- **دلالة مظاهر الطبيعة على بيان قدرة الله تعالى :**

يعرف للقرآن الكريم بقدرة الله تعالى عن طريق إبراز صفاته الكاملة. وتبيان ما خلق الله، ليصل الإنسان بعقله إلى إدراك قدرة الله عز وجل، فخير درس في تعريف الله إلى الناس أن تنتقل بهم إلى مشاهد الكون ونسألهم : من الذي فعل هذا ؟ إنه الله وإلا فمن [1] .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : {**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**}.(فاطر الآية: 11 13)

1– انظر محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام .دار الكتب الحديثة . ص .122

- **آية البحار والأنهار** . تشتمل هذه الآية على آيات :

تتحدث الآية عن تنوع مياه الأنهار والبحار ما بين ماء عذب فرات، وماء ملح أُجاج؛ فالماء العذب يجرى في الأنهار. والماء الملح تعج به البحار والمحيطات. وهذا وذاك من خلق الله ، ويتم بمشيئة الله . واختلافهما وهما من مصدر واحد كان كفيلاً أن يوقظ الحس لحقيقة القدرة الكامنة وراء وجودهما ووراء اختلافهما [1] .

وتبين الآية استخراج اللحم الطري منهما . قال تعالى : {و**مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً**}؛ أي ومن كلٍ من البحار والأنهار تأكلون مما تصيدون من الأسماك . " فالمراد باللحم الطري : السمك ، ووصفُه بالطراوة للإشعار بلطفه، والإرشاد إلى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعة " [2]،

كما تبين الآية استخراج الحلية منهما . قال تعالى : { **وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا** } والمراد بالحلية هنا : اللؤلؤ والمرجان وغيرهما كما فى قوله سبحانه : { **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ** } (سورة الرحمن الآية : 22)

وتبين الآية الفلك الماخرة فيهما {**وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ** } أي : وترى –أيها المشاهد– السفن شوقا للماء تدفعه بصدرها [3] . ومن منافع هذه الفلك أنها تحمل الأثقال وتنقلها من بلد إلى آخر، أو إقليم إلى آخر ، لينتفع أهل الأرض بكل خيراتها ، وما يفضل من إقليم ينقل إلى غيره، فيعم الخير ، ويتبادل الناس جميعاً ما في الأرض من نبات وحيوان، ولذا قال سبحانه : {**وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ** (سورة البقرة الآية : 164)

1– محمد قطب: دراسات قرآنية . ص 234 .

2– الشوكانى : فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير م 3 . ص 192

3– المرجع نفسه . ص 192 .

وآية الفلك أنها تحمل أثقالاً ويحملها الماء السائل الرقيق ، ولقد قال تعالى : { **وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ . إِلا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ** } (سورة يس. الآيات : 41 – 44)

وإن في الفلك آيات أخرى في تسخير الله لها بالرياح تجريها وتتحرك حيث أراد محركها ، وإنه بعد اتساع العلم ، وقدرة الإنسان في تسخير الآلات والسيطرة عليها ما زالت الرياح عاملاً قائماً في تسيير الجاريات [1] .

- **آية الليل والنهار :**

قال تعالى : { **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**} تتحدث الآية عن تلاقي الليل بالنهار، حيث يبدأ النور في الغياب قليلاً قليلاً ، ويحل الظلام رويدا رويدا حتى يكون الغروب، ثم يأتي الظلام الدامس.

وكلها مشاهد تطوّف بالقلب فى سكون، وتغمره بشعور من الروعة والتقوى ، وهو يرى يد الله تمد هذا الخط ، وتطوى ذاك الخيط ، وتشد هذا الخيط وترخى ذاك الخيط في نظام دقيق مطرد لا يتخلّف مرةً ولا يضطرب ، ولا يختل يوماً أو عاماً على توالى القرون [2].

- **تسخير الشمس والقمر وجريانهما لمنافع العباد .**

قال تعالى : { **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمّىً** } . التسخير : سياقة الشيء إلى الغرض المختص به قهراً [3] ومعنى { **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**} : وأجرى الشمس والقمر فى السماء ، فسخرهما فيها لمصالح خلقه ، وذللهما لمنافعهم ، ليعلموا بجريهما فيها عدد السنين والحساب ، ويفصلوا به بين الليل والنهار [4] .

1- محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير . دار الفكر . ج 7 . ص 489

2- سيد قطب : فى ظلال القرآن م 5 . ص 2935 .

3- الراغب الأصفهاني: المفردات فى غريب القرآن ص : 233 .

4- ابن جرير الطبري : جامع البيان عن تأويل آى القرآن . م 8 . ص 124 .

ومعنى : { **كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمّىً** } أي : كل من الشمس والقمر يجرى إلى وقت معلوم: وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التي تكوَّر عندها الشمس ويخسف القمر وتتكدر النجوم وتنتثر، وقيل : المراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى تنتهيان إليها لا يجاوزنها [1] .

والقطمير : القشرة الرقيقة التي على النواة بين النواة والتمرة ، ويقال : هى النُّكتة البيضاء التى فى ظهر النواة تنبت منها النخلة [2] .

1- الشوكانى : فتح القدير . م 3 . ص 80 .

2- انظر: الجوهري : تاج اللغة وصحاح العربية المسمى. م 2 . ص 682 .

خاتمة

خاتمة:

كشفنا في بحثنا عن أهم الجوانب التي تعبر عن مفهوم الكون والطبيعة في القرآن الكريم،فبعد دراسة لا بأس بها ، وتمحيص دقيق وصلنا إلى :

أن الكون الذي نعيش فيه ،وما يحيط بنا من عناصره الطّبيعية (الهواء، الماء التراب، النّار، الحديد)؛ فيه من الدّقة والإعجاز الكثير، وهذا إن دلّ فهو يدل على وجود حكمة من وراء خلق هذا الكون، ووجود خالق مسيّر للظواهر الطبيعية، وهو الآمر النّاهي المتحكّم في أمور مخلوقاته ، وهذا الكلام لا يخفى بالتّأكيد على ذوي العقول النّاضجة والمتبصّرة.

أنّ هذا الكون في تطوّره مرّ بمراحل تاريخيّة عديدة، وكانت معظم الأمم والحضارات تهتم به منذ القدم، حتى أنّ هناك من الشعوب من قدّسه واتخذت من الموجودات فيه آلهة للتّضرع لها وعبادتها، كالقمر والشمس.

أن عبادة تلك الحضارات والشعوب لهذه العناصر، إنّما تدل في حقيقة الأمر على قدرة المولى عزّ وجل وعظمته، فخلقه لهذه الأشياء العظيمة هو ما جعل تلك الشعوب تقدّسها، ولكن عن جهل بحقيقة وجودها.

إننا من خلال هذه الدراسة وصلنا إلى أن القرآن الكريم ،يحمل من الألفاظ الدالة على الطبيعة والكون؛ الكثير ولم يبقى أيّ عنصر كوني إلا وذكره في القرآن بعدة صيغ، وفي تراكيب مختلفة، وسياقات متعددة وفي كل صيغة دلالتها الخاصّة، التي تختلف عن الكلمات الأخرى، مع أنها تحتوي على نفس الجدر للكلمة الواحدة.

من خلال هذه الدراسة اتّضح أن القرآن أعطى أهمية كبيرة لهذا الكون والدليل على ذلك المواضع المختلفة التي ذكر فيها، وبلا شك أنّ كل ما ذكره الله جلّ جلاله ليس عبثا،حاشا لله ،بل هناك غايات من ورائها.

والأهمّ من هذا كلّه أنّ هذا الكون الواسع والمليء بالأسرار، والخفايا هو أكبر دليل على وجود الخالق القهّار، وخير دليل غلى كلامنا هذا هو القرآن الكريم.

أنّ القرآن خصّ الكون والطبيعة بالذكر الكثير،وهذا للدلالة على عظمته وتنبيه عباده إلى النّظر في العالم الخارجي، وإعطائه أهمّية وتجنّب الفساد في الأرض باعتبار الإنسان خليفة الله فيها.

وأهمّ شيء توصّلنا إليه في بحثنا هذا؛ لأنّه وعلى الرّغم من هذه الأهمّية التي خصّصها الله جلّ علاه لهذ الكون إلاّ أنّ هناك تقصير كبير من ناحية الدراسة العلمية لنظرة القرآن الكريم للكون ،فلم نجد دراسات كافية توفي وتلمّ بنظرة القرآن إلى الكون والطّبيعة من كلّ الجوانب . فلماذا هذا التّقصير؟ إذ أنّنا لم نجد سوى بعض التّفاسير الشّارحة للسور القرآنية الوافدة إلينا من المتقدّمين (علماء الفقه والدّين).

ومن هنا، فإنّنا نأمل من كلّ طالب علمٍ مهما كان تخصّصه أن يوسّع هذه الدراسة ويصل بها إلى أبعد الحدود، تقديرا إلى ما جاء به القرآن .

المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم .

2- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ،بيروت ،لبنان، ج4،ط5.

3- ابن منظور: لسان العرب ،دار صبح،بيروت،لبنان،ط1،ج2008،8م.

4- أحمد عمر هاشم:النّفس في القرآن الكريم، دار الفصل، 1996م.

5- أمير ملاتي ربيعة: القرآن والعلم في فضاء المعرفة، دار المشرق وهران ،الجزائر.

6- أنطوان نعمة ،وآخرون ،المنجّد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2001،1م.

7- جمال ماضي أبو حازم: القرآن والصّحّة النّفسية، ط1994،1م.

8- د جمال ميموني،د نضال قسّوم: قصّة الكون من التّصورات البدائية إلى الإنفجار العظيم، دار المعرفة،الجزائر،2002م.

9- جلال الدين المحلي والسيوطي: تفسير الجلالين، دار الفكر، بيروت،لبنان.

10- اسماعيل بن حمّاد الجوهري: الصّحاح، دار العلم،بيروت،لبنان،ج3. ط1990،4م.

11- سيد وقّار أحمد حسن: العلوم الفلكية والقرآن الكريم،دار طلاس، دمشق، سوريا، ط2 1996م.

12- عبد الرحمان بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1 ، 1990م.

13- عبد القادر عطاء: عظمة القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

14- فؤاد شاكر :أدب القرآن،القاهرة، مصر ،2002م.

15- الفيروزبادي :القاموس المحيط،مؤسسة الرّسالة،ط8،2005م.

16- فايز رسمي الشوامرة: ألفاظ البيئة الطّبيعية في شعر إيليا أبي ماضي. رسالة ماجستير 2006م/2007م.

17- محمد بن عوفير: موضوعة الطّبيعة، الثانوية التأهيلية ،الحسن الثّاني.

18- محمّد الصّالح الصّدّيق:البيان في علوم القرآن. المؤسسة الوطنية للكتاب، باب الزوار.

19- محمد فيّاض: إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، دار الشروق، ط1،1997م.

20- محمود الألّوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني،دار الفكر،بيروت،لبنان، ج1 . 6،1994م .

21- مصطفى محمود: علم نفس قرآني جديد ، دار أخبار، اليوم، 1998م.

22- معجم الوسيط، مصر ، ط4.

فهرس الموضوعات

الفهرس:

- مقدمة :
- مدخل

- الفصل الأول

- الفصل الثاني

- الخاتمة

- المصادر والمراجع